﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

[النمل: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سَوْقُ قصّة لوط بعد الفراغ من قصّة صالح عليه السلام

لمّا فرغ من قصَّة القريب الذي دعا قومه - صالحٍ عليه السلام - فإذا هم قسمانِ يختصمانِ، بعد الغريبِ الذي لم يختلفْ عليه ممَّن دعاهم اثنان - وهو سُليمان عليه السلام - أتبعَها بغريبٍ لم يتّبعه ممّن دعاهم من قومه إنسانٌ - وهو لوط عليه السلام - فقال دالًّا على أنَّه له سبحانه الاختيار، فتارةً يُجري الأمور على القياس، وأُخرى على خلاف الأساسِ، الَّذي تقتضيه عقولُ الناس، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: (فحش) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على قُبْحٍ في شَيْءٍ وشَناعَةٍ، ويأْتي الفُحْشُ بِمعنى الزيادَةِ ومُجاوَزَةِ الحَدِّ، ومِنْهُ قيل لِلطَّويلِ طولًا زائِدًا: إنَّه لَفاحِشُ الطّولِ، وكُلُّ شَيْءٍ جاوَزَ قَدْرَهُ فهو فاحِشٌ[2]. والفاحِشَةُ: القَبيحُ والسَّيِّئُ مِنَ القَوْلِ أوِ الفِعْلِ، يُقال: فَحَشَ، وفَحُشَ، وأَفْحَشَ عَلَينا: أيْ: سَبَّنا، وقال قَوْلًا فاحِشًا[3]. ومِنْ مَعاني الفاحِشَةِ: التَّعَدّي والذَّنْبُ والزِّنا، وجَمْعُها: فَواحِشُ[4]. والمراد بالفاحشة في الآية: الفعلةُ الشَّنيعة المتناهيةُ في القبح، وهي إتيانُ الذُّكورِ.

2) ﴿تُبْصِرُونَ﴾: (بصر) أصلٌ يدلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، يُقال: بَصُرَ الطَّريقُ أَي: استبانَ ووَضُحَ، والبَصيرَةُ: البُرْهانُ[5]. والبَصيرُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 181.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش)، وابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين: 1/ 156.
(3) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (فحش).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).

والمُبْصِرُ: النَّاظِرُ لِغَيْرِه، وضِدُّهُ الأَعْمَى. ويَأْتي البَصَرُ أَيْضًا بِمَعْنَى: العِلْم والإدْراك، وهيَ الرُّؤْيَةُ بِالقَلْب، كَقَوْلِكَ: بَصُرْتُ بِالشَّيْءِ إذا عَلِمْتَهُ وأَدْرَكْتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدْراك والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمْعُ: بَصائِرُ[1]. والمرادُ بقوله تعالى: ﴿تُبْصِرُونَ﴾ في الآية: تعلمونَ عاقبةَ فِعلِها، أوْ يُبصِرُ بعضُكم بعضًا علانيةً أثناءَ الفاحشة، أي: تجاهرونَ بها من دون حياءٍ أوْ خجَل.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من شأنِ العُقلاء تركُ الذّنب المعلومِ شناعتُه

يبيِّنُ اللّه تعالى جانبًا مِن قصَّةِ لوطٍ عليه السلام مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: واذكر لقومك حديثَ لوط لقومه إذ قالَ لهم مُنذرًا ومحذِّرًا: إنَّكم لتفعلونَ فاحشةً لم يسبقْكم بها أحدٌ من بنى آدم، وهي إتيانُ الذُّكورِ في أدبارِهم - والحالُ أنَّكم تُبصِرونَ وتدركونَ خطأَ ذلك؟![2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾:

في ذكر قصص الصّالحين تسليةٌ للمؤمنين، وتخويفٌ للظّالمين

(الواو) عاطفةٌ، و(لوطًا) معطوفٌ على ﴿صَٰلِحًا﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: و﴿وَلُوطًا﴾ على معنى: أرسلنا (لوطًا). وقيل: هو معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وأَنْجَيْنا (لوطًا)[3]. ورجَّح الشِّهاب الخفاجيّ أنّ العطف هنا ليس من باب عطف المفردات، ولكنّه عطفُ قصّةٍ على قصة[4]، على معنى: واذكرْ يا محمّدُ ﷺ لوطًا كما ذكرتَ قصصَ الأنبياءِ السّابقين له.

بلاغةُ حذفِ عاملِ النَّصب في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾:

أحاديّةُ اللّفظ وتعدُّدُ المعنى

يجوزُ أنْ ينصب ﴿وَلُوطًا﴾ لا لعطفِه على ﴿صَٰلِحًا﴾ أوِ ﴿ٱلَّذِينَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: 1/ 59.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 200، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 606.
(3) السمين، الدر المصون: 8/ 628، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5465، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 287.
(4) الخفاجي، حاشية الشهاب: 7/ 51.

ءَامَنُواْ﴾ ولكن بفعلٍ مقدَّر تقديره: اذكر، أي: واذكر (لوطًا)، لأنَّ وجود ﴿إِذْ﴾ بعدَه يقرّبُه من نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 30][1]. وقيل: بل منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ معطوفٍ على ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ صدرَ قصّةِ صالح ﷺ، داخلٌ معه في حيّز القسم، أي: وأرسلنا (لوطًا). وعلى كلٍّ من هذه الاحتمالات يتحقّق معنى (الإرسال والذّكر والإنجاءِ)، فيكون التركيبُ واحدًا والمعنى متعدّدًا[2].

سرُّ تغيير الأسلوب في قصة لوط:

للتوافق والاختلاف موجِبات وأغراض

لاشكَّ أنَّ من أغراض ذكر قصَص الأقوام مع أنبيائهم في القرآن الكريم، أنْ يعتبر بها المخاطَبون بالرّسالة الخاتمة، فكثيرٌ من هذا القصَص كانت تتشابهُ فيه طبائعُ الكفّار، كما تتوافقُ مواقفُهم المعاندةُ مع الرُّسُل عليهم صلواتُ الله وسلامُه، وردودُهم الجافّة على خطاب دعوتهم إيّاهم إلى التوحيد، حدَّ التطابقِ أحيانًا والتقاربِ الشَّديد أحيانًا أخرى، وكأنَّ المشاهِدَ البشريّة تتكرّر، وكأنَّ المخاطبين مع اختلاف أزمانهم وبيئاتهم ما هم سوى نُسَخٍ مكرورة. وكانت ثمود ممَّن تشابهت قصّةُ دعوتهم في أصل الدعوة، ثمَّ في طريقة المواجهة، مع قصةِ دعوةِ الرّسول ﷺ قريشًا وأهلَ مكّة باعتبارهم أوَّل مَن خوطبوا بالدَّعوة والرسالة، ولذلك صُرِّح بذكرهم فقيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ لتعتبرَ قريش بما جرى لهم فلا يفعلونَ مثلَما فعلوا. أمّا في قصة لوط ﷺ هنا، فإنه "لم يذكر المرسَل إليهم كما ذُكِروا في قصة ثمودَ، لعدم تمام المشابهة بين قوم لوط وبين قريش فيما عدا التكذيبَ والشِّرك"[3]، فقريشٌ لم تكن فيهم تلك الخصلةُ الشَّنيعة[4] التي اعتنتْ دعوةُ لوط

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 287، والسمين، الدر المصون: 8/ 628.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 287.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 99.

ﷺ بإنكارِها ومعالجتها، وهي خصلةُ إتيانِ الرِّجال شهوةً من دون النِّساء. ومن أسباب تغييرِ الأسلوب كذلك في ابتداء قصة لوط وقومه، إذ ابتُدئت بذكر ﴿وَلُوطًا﴾ أنّه لم يكن لقوم لوط اسمٌ يُعرفون به[1]، أمّا ثمود فمعروفونَ فلذلك ذكِروا به، ولذلك اختلف الأسلوبُ في عرض القصّتين هنا.

سرُّ عدم وصف (لوط) بأنّه أخوهم:

قرابةُ النبيِّ من قومه وعدمُها مؤثّران في طبيعة التعبير

إنّ لوطًا ﷺ كان ابنَ أخِ إبراهيمَ ﷺ، وقد نزلَ ببلاد (سدوم)، وكان أهلها خليطًا من الكنعانيّين وممَّن نزل حولهم، ولم يكن بينهم وبينه ﷺ نسبٌ أوْ قرابةٌ، ولذلك لم يصرِّح هنا بأخوتِه لهم في النَّسب[2]. إضافةً إلى أنَّ فعلتهم المشينةَ تبعثُ على النفرة منهم، فلا يصلح التقرُّبَ إليهم باسم (الأخوَّة) على أيِّ معانيها حُمِلَت.

سرُّ التعبير بالظّرف ﴿إِذْ﴾ وموقعُها الإعرابيّ:

ثباتُ النص وحركةُ المعنى وثراؤه

القولُ في إعراب ﴿إِذْ﴾ ودلالتها متوقّفٌ على الفصل في إعراب ﴿وَلُوطًا﴾، فعلى إعراب ﴿وَلُوطًا﴾ مفعولًا به لفعلٍ محذوفٍ، على حسب تقدير النّاصب المحذوف يكونُ إعراب ﴿إِذْ﴾، فإنْ كان تقديره: (اذكر) كانتْ ﴿إِذْ﴾ ظرفًا لما مضى من الزَّمان متعلِّقا بـ (اذكر)، وإنْ جُعل تقديرُه (أرسلنا) كانت ﴿إِذْ﴾ بدلَ اشتمالٍ من ﴿وَلُوطًا﴾[3]. ودلالةُ الظرفيَّة على تقدير: (اذكر) أنَّ المعنى: اذكر يا محمد وقتَ أنْ قال لوطٌ لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فيدلُّ ذلك على رفعة قدرِ هذا الوقت وتعظيم مكانته؛ لأنه وقتُ نهيٍ عن المنكر، والنهيُ عن المنكر من أعظمِ القُرُبات إلى الله تعالى. وأمّا على جعل ﴿وَلُوطًا﴾ معطوفًا على ما قبله، فإنْ ﴿إِذْ﴾ يكون منصوبًا على أنّه ظرفٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 229.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 229.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 230.

للإرسالِ أوِ الإنجاء[1]. ودلالته على كونه ظرفًا للإرسال الإرشادُ إلى أنَّ لوطًا ﷺ قد بادرَ إلى القيام بواجب الدعوة في النهي عن المنكر بمجرَّد إرساله، ولم يتباطأ في تلبيةِ ما أوجبَه عليه الإرسال، ولم يخفْ سطوة القوم وبطشَهم به، إنْ هو نهاهم عن هذا المنكر الذي تمكَّنَ من نفوسهم، فقلبَ فطرتهم ونكّسَها.

دلالةُ التعبير بالقول في قوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾:

أهمية عامل الزّمن في حركة الدَّعوة واستمرارها

التعبير بالقول في جملة: ﴿إِذْ قَالَ﴾ يدلُّ على أنه ﷺ حاورَهم وجادَلهم وقاولَهم في سبيل الإقلاع عن الفاحشةِ التي لم يسبقْهم إليها أحدٌ من العالمين، وفي إضافة الظّرف إلى القولِ تشخيصٌ لعامل الزّمن وأهميته في الدعوة إلى الله تعالى؛ إذ يرتبط الحدثُ بالزمان فيدلُّ على أنَّ لوطًا كان حريصًا على دعوة قومِه والتكلُّم معهم والوعظِ لهم، فالإضافةُ للتخصيص للزّمن بحدث القول والحوار المشتملِ على الدعوة، وإنما عبّر عن الدعوة بالقول؛ لأنها تستلزمُ الحديثَ والحوار والأسلوبَ اللّيِّنَ مع الدقَّة والعمق.

بلاغةُ التعبير بالقوم في قوله: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾:

التنزُّهَ عن الفحشاء خلُقُ الرّجال المتقين

عبَّرَ عن المدعوّين المقول لهم الكلام اللَّيِّن الهادف بلفظ (القوم)، وأضافهم إلى ضمير النبي ﷺ، ليدلَّ على حرصِه عليهم، وأنّه ما قال لهم ما قال إلا مراعاةً لمصلحتهم، ودرءًا للمفاسد عنهم، وهذا من فَرْطِ اعتنائه بهم وشفقته عليهم، لأنهم قومُه باعتبار أنّه عاش معهم، وبُعِث فيهم وهم أهلُ دعوته، والإضافةُ تكون لأدنى ملابسةٍ. وأراد بالقوم (الرجال)؛ لأنَّ هذه الخصلة الشنيعةَ كان يفعلها الرجالُ من قوم لوط، ومِن ثمَّ خاطبهم بالقوم لأنَّ الرجلَ هو الذي يقومُ على أمور أهله، فكأنّه قال: (إذ قال للرّجال) المضافينَ إليه بعنوان الرجولة، لكنَّه لا يفعل مثلَ فعلهم تنزُّها عنهم، فمعَ كونه

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 370.

رجلًا ويتمتّعُ بما يتمتّعون به إلا أنَّه لا يرضى لنفسه أنْ يكون معَهم ومثلَهم في ذلك.

دلالة التعبير بقوله: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ دون (يا قومِ):

دعـوةُ الأنبياء لأقوامهم وظيفةٌ شاقّة

(اللّام) في ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ هي لامُ العلّة والغرض، أي: قال ما قال لأجلِ نُصْحِ الرِّجال من قومه على فعلِهم الشّنيع. وتحتملُ التعدية أيضًا، وتسمَّى عند بعض النحويين لامَ التبليغ، التي تُشْعِر بأنّه ﷺ قد قام بواجبِ تبليغِهم رسالةَ ربِّهم. ولأجل أنّهم ليسوا قومَه في النسب لم يقل لهم: (يا قومِ) بإضافتهم إليه بياء النّسبة كما سبقَ في قصَّة صالحٍ ﷺ، بل اكتفى بعبارة ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ مضيفًا لهم إليه بهاء الغائب؛ لأنه بعيدٌ عنهم نسبًا وفعلًا وأخلاقًا، وسبق تعليلُ الإضافة بأنه مَرْعيٌّ فيها إقامتُه ﷺ فيهم وإرسالُه إليهم، وأنَّ خطابه للرِّجال منهم فأضافَهم إليه لأجلها.

دلالة الاستفهام في قوله ﴿أَتَأْتُونَ﴾:

التوبيخُ الشديد متّسقٌ مع الفعلِ الشَّنيع

(الهمزة) الداخلة على المضارع في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ هي للاستفهام الإنكاريِّ، المقصود به التوبيخُ والزّجرُ والتشنيع[1]؛ لأنَّ المنكَر عليهم هنا ليس مجرّدَ ذنبٍ قد يقع فيه أيُّ أحد، ولكنَّه جُرمٌ شديدٌ يعبّر عن انحرافِ الفطرة التي فطرَ اللّه الإنسان عليها، حيثُ جعلَ منه ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: 45]، لكنَّ هؤلاء القوم بدَّلوا فطرتهم فعافوا الإقبالَ على الزوجات، واستبدلوا بهنّ الرّجال، فكان هذا الإنكار الشديدَ عليهم. وقوّةُ الإنكار تكونُ على قدر قوّة المنكَر ومَدى تفشّيه في مجتمعِ الدّعوة.

سرُّ التعبير بالإتيان في ﴿أَتَأْتُونَ﴾ دون (أتفعلون):

التعبير بالإتيان يدل على القصد في الفعل والسهولة في المجيء

أوثر التعبير بالإتيان في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ لما في التعبير به من دلالةٍ على القصدِ في الفعل، والسُّهولة في المجيءِ للفاحشة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/ 99.

والاعتياد وعليها حتى صارت حدثًا عاديًا، فهذانِ المعنيان أخصُّ ما يدل عليه لفظُ الإتيان[1]. والقصدُ يعني أنّهم لا يفعلونها عرَضًا أوِ اتفاقًا، أوْ نتيجةً لضعف النّفس وانهزامِها أمام شهوتها مرّةً أوْ مرَّتين، يعقبُهما ندمٌ وتوبةٌ وعزمٌ على عدم العوْد، بل إنهم كانوا يعمَدون إليها عن قصدٍ وعزمٍ وتدبيرٍ لها، وإصرارٍ عليها إصرارًا يُخرجهم عن دائرة الحيوانيّة، وليس فقط عن دائرة الإنسانيَّة؛ لأنَّ الحيوان لا يقوم بهذا الفعل مع أمثالِه في النوع. وأمّا السّهولة؛ فلأنَّهم لاعتيادِهم عليها صارَ الإقبالُ عليها بالنّسبة لهم هو العادةَ والإلْف، أي: ما يفعلُه المرء على أنَّه السّلوك الطبيعيُّ الذي لا يَتكلَّفُ له. لهذين السّببينِ كان التعبير بـ(الإتيان) هو التعبيرَ الأنسبَ هنا. وأمّا لفظ (الفعل) فهو من الألفاظ العامّة التي لا يعبرُ بها عن خصوصيّة عملٍ معيّن، وإنما يصلحُ التعبير به عن كلّ شيء يرادُ إنجازُه، كما أنّه ليس نصًّا في الدلالة على القصديَّة، ولذلك يُسند إلى الحيوانات غير العاقلة[2]، فيقال: (فَعَلَ، وفَعَلَت) فلهذا أوثر عليه التعبير بالإتيان. ونلحظُ أنَّ فعل الإتيان يستلزمُ أنَّ ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ في مكانٍ ويأتون إليها راغبين، بخلاف الفعل الّذي لا يُجسّدُ الفاحشة على أنَّه في محلٍّ ويقدمُ عليه، وفي ذلك دلالةٌ على طلبهم للفاحشة وحرصِهم عليها.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾:

في قوله هنا: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ كنايةٌ عن مقارفةِ فاحشةِ[3] إتيانِ الذُّكران، فيما يُعرَفُ قديمًا بـ(اللِّواط)، وحديثًا بالشُّذوذ والمثليَّة، ومقصودُ الكناية الإشعارُ باستقذارِ هذه الفِعْلة وتبشيعِها، حتى إنَّه لا يحسُنُ التصريحُ بها.

تـنـزُّهُ ألـفـاظ الـقـرآن غـايـةٌ تهذيبيّة

(1) الراغب، المفردات: (أتى - جاء)، والعسكري، الفروق اللغوية ص: 309، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80.

(2) الراغب، المفردات: (فعل - عمل).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8ب/ 231.

سرُّ التعبير بـ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ معرّفةً:

الفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ: ما عظُم قبحُه من الأفعال والأقوال[1]، ولأنَّ هذه الفعلةَ من أقبحِ الفِعال وأشنعِها، فقد عبَّر عنها بـ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ تعظيمًا لها وتعريفًا بأمرها الشنيع. وآثر التعبيرَ بها معرَّفة بـ (أل) فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهي للعهد العلميّ، ذلك أنه لمّا كان هذا الفعلُ معهودًا قبحُهُ مركوزًا في العقول فحشُهُ أتى به معرَّفًا بـ(الألف واللام) على سبيل الذمِّ. ويجوز أن تكون (أل) فيه للجنس على سبيلِ المبالغة، كأنّه لشدَّة قُبحِه، جُعِل كأنّه حقيقةُ الفواحش، لبُعد العربِ عن ذلك البعدَ التام[2]، وذلك بخلاف الزنا فإنه قالَ فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: 32] فأتى به منكَّرًا، أي: فاحشةً عظيمةً من الفواحش، وكان كثيرٌ من العرب يفعلُهُ، ولا يستنكرونَ مِن فعله، ولا ذكرِه في أشعارهم[3].

الذّنبُ العظيم فحشٌ شنيع

دلالةُ التعبير بالمفرد ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾:

على القول بأنَّ (أل) للجنس يكون المفردُ قائمًا مقامَ الجمع لصدقِه بالواحد والجمع، وتكون هذه الفِعلةُ لعِظَم قُبحها كأنَّها قد جمعتْ قبحَ كلِّ الفواحش، فعبَّر عنها بالفاحشة قصدًا إلى ذلك، فكأنها لشدَّة قُبحها جُعلت جميعَ الفواحش[4]. وإنَّ قومًا كهؤلاء سَهُل عليهم أن يُنكِّسوا فطرتهم لا يُشكُّ في أنه كانت لهم فواحشُ أُخرى، وعظائمُ في القبح غيرَ هذه، لكنْ كلُّ فاحشة سواها فهي في القُبح دونها بلا رَيب، ولذا أفردَها وكأنّه ليست لهم فاحشةٌ سِواها.

إفـــرادُ الـكـلام لـقُـبـح الـفـعـلِ المُلْدم

دلالة التعبير بجملة: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾:

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملةٌ حاليّةٌ من فاعل ﴿أَتَأْتُونَ﴾ مفيدةٌ

صـدورُ القبيح مـن الـعـالـم به شناعةٌ عظيمة

(1) الراغب، المفردات: (فحش).

(2) يدل على ذلك ما صح نقله عن الوليد بن عبد الملك من قوله: "لولا أن الله قص علينا قصة قوم لوط في كتابه، ما ظننت أن ذكرا يأتي ذكرا كما تؤتى النساء". ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية: 12/ 403.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 99.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 99.

تأكيدَ الإنكارِ عليهم وتشديدَه، وزيادةَ تبكيتِهم وتوبيخهم، فإنَّ تعاطيَ القبيح من العالم بقبحِه أقبحُ وأشنع، وهذا القبيحُ الذي تعاطَوه لا يجهلُ أحدٌ قبحَه، حتى إنَّهم يشاهدونَ تنزُّهَ الحيوان عنه، كما يعلمونَ سوءَ عاقبته، وسوءَ عاقبة الَّذين خالفوا أنبياءَهم من قبلهم[1]. ومع ذلك لم يستنكِفوا عن فِعلتهم أوْ يخجَلوا من ممارستِها.

دلالة الخطاب في قوله: ﴿وَأَنتُمْ﴾:

استباحةُ الفعل الشنيع مستوجبةٌ للمواجهة الصّارخة

التعبيرُ بضمير الخطاب الجمعيِّ ﴿وَأَنتُمْ﴾ يدلُّ على أنَّهم كانوا مُجمعينَ على ممارسة هذه الفعلة الشَّنيعة دونما خجلٍ أوِ ارعواء، وكأنَّها هي الفطرةُ وليس العكس، فإنهم لم يَلتفتوا يومًا إلى أنَّهم قد نكّسوها، وخالفوا سنّةَ الله فيها. كما يدلُّ خطابهم بالضمير الجمعيِّ كذلك على أنَّه ﷺ كان يواجههم - على كثرتهم مع سفههم- ولا يهابُهم أداءً لواجب البلاغ، وثقةً في حماية الله تعالى له ونَصْرِه إيّاه.

بلاغةُ التعبير بـ(البصر) في قوله: ﴿تُبْصِرُونَ﴾:

البصرُ كافٍ للاعتبار ومانعٌ للفجّار

البصرُ في قوله: ﴿تُبْصِرُونَ﴾ يحتملُ أنْ يكون من (البصيرة) وهي رؤيةُ القلب وبصرُه ورؤيته للأمور، والمعنى: أتفعلونَها والحالُ أنتم تعلمونَ علْمًا يقينيًا أنها فاحشةٌ بالغةُ القُبْح؟ ويحتملُ - وهو الأظهرُ - أنْ يكونَ من بصَر العين ونظرها، أي: وأنتم ترونَ وتشاهدونَ كونها فاحشةً مستنكرةً تخالفُ الفطرةَ السَّليمةَ، وعمَلًا قبيحًا لا يُشكُّ في خساستِه، على تنزيلِ ذلك الكون لظهوره منزلةَ المحسوس[2]. أوْ أنَّ المعنى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ما حَلَّ بأصحابِ الفساد قبلَكم من أقضيةِ الله عليهم[3]. فتَعتبروا وتتّعظوا فَتَنتهوا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 5/ 452، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 341.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10805.

عنها. وعلى ذلك فإنَّ التعبير بالبصر "فيه إشارةٌ إلى أنَّ البصر يكفي لإثباتِ قُبحه، فهو قبيحٌ حسًّا وطبعًا وعقلًا، إذ هو بالحسِّ وضعٌ للشيء في غير موضعِه، واستعمالٌ للمكان في غير ما خُصِّصَ له بمقتضى الفطرة السَّليمة[1].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿تُبْصِرُونَ﴾ وحذف متعلّقه:

اعتيادُ الذّنب من المجرمين مُستوجِبٌ للعقاب الكبير

عبَّر بالمضارع فقال: ﴿تُبْصِرُونَ﴾ للدلالة على حضور قُبحها أمامَهم حضورًا مستمرًّا؛ لكونها هي نفسُها حاضرةً بينهم حضورًا مستمرًّا، كسلوك مُنحرفٍ يتكرّرُ من عامَّتهم. وحُذِف المتعلِّق لتذهبَ النفس في تقديره كلَّ مَذهب، فيقال مثلًا: تُبصرونَ كونها فاحشةً، أوْ: تُبصرونَ قُبحها وتعلمونَ مَدى اعوجاجِها، أوْ: تُبصرون حالَ أهلِ الفساد من قبلكم كيفَ كان مصيرُهم؟ ويمكنُ أن يكون من تنزيل المتعدّي منزلة اللّازم، والمعنى: "أوْ: وأنتم ينظرُ بعضُكم بعضًا - أثناءَ مُمارستها - لا يستترُ، ولا يَتحاشى من إظهار ذلك، لعدمِ اكتراثِكم به"[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5465.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»